الكتاب الثالث

الخلافة والحكومة فى التاريخ

الباب الأول

الوحدة الدينية والعرب

ليس الاسلام دينا خاصا بالعرب — العربية والدين — انحاز العرب الدينى مع اختلاف فهم السياسى — انظمة الاسلام دينية لا سياسية — ضعف التباين السياسى عند العرب — ايام النبى — انتهاء الزعامة بموت الرسول عليه السلام — لم يسم النبى (صلعم) خليفة من بعده — مذهب الشيعة فى استخلاف على — مذهب جماعة فى استخلاف أبى بكر

(١) الاسلام كما عرفت دعوة سامية ، أرسلها الله لخير هذا العالم كله ، شرقيه وغربيه ، عربيه وأعجميه ، رجاله ونسائه أغنياؤه وفقراؤه ، عالميه وجهلائه هو وحدة دينية ، أراد الله أن يربط بها البشر ، وأن تشمل أقطار الارض كلها ، وما كان الاسلام دعوة عربية ، ولا وحدة عربية ، ولا ديناً عربيا . وما كان الاسلام ليعرف فضلا لأمة على أمة ، ولا للغة على لغة ، ولا لقطر على قطر ، ولا لزمن على زمن ، ولا لجيل على جيل ، إلا بالتقوى . ذلك على رغم ما ترى ، من أن النبى عليه السلام كان عربيا ، وكان يحب العرب بالطبع ، ويثنى عليهم ، وكان كتاب الله عربيا مبينا

(٢) كان لا بد لدعوة الاسلام أن تخرج الى هذا الوجود، وأن تبرز حقيقة ثابتة بين حقائق هذا الكون ، وأن يحملها عن جانب القدس الأعلي رسول يختاره الله تعالى ، ليبلغها إلى الناس

ولقد رضي الله جل شأنه ، وتعالى حكمه ، أن يختار رسوله لتلك الدعوة من بين القبائل العربية دون غيرها ، وأن يختاره فى العرب من بين ولد اسماعيل ، وأن يختاره من بين ولد اسماعيل فى كنانة ، وأن يختاره فى كنانة من قريش ، وأن يختاره فى قريش من بنى هاشم ، وأن يختار من بنى هاشم محمدَ بنَ عبدالله صلى الله تعالى عليه وسلم

لله جل شأنه حكمة فى ذلك بالغة ، قد نعرفها وقد لا نعرفها

«وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ، سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ، وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (١)»

كتاب عربى ، ورسول عربي ، فلا مناص بالطبع من أن تبدأ دعوة الاسلام بين العرب ، قبل أن تصل إلى غيرهم . ولا مناص بالطبع من أن يكون العرب أول من تشق آذانهم دعوة ذلك البشير النذير ، وأول من يهيب بهم ذلك الداعى إلى الله ، وأول من يحاول أن يجمعهم على الهدى

وكذلك بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة بين عشيرته الأقربين ، ثم بين قومه العرب ، وما زال بهم ، يؤيده نصر الله ، حتى أتوا لدعوته خاضعين . وكانوا تحت زعامة ذلك الرسول الامين ، أولَ داخل فى وحدة الدين

---

(١) سورة القصص

(٣) البلاد العربية ، كما تعرف ، كانت تحوى أصنافاً من العرب مختلفة الشعوب والقبائل ، متباينة اللهجات ، متنائية الجهات ، وكانت مختلفة أيضاً فى الوحدات السياسية ، فمنها ما كان خاضعاً للدولة الرومية ومنها ما كان قائماً بذاته مستقلا

كل ذلك يستتبع ، بالضرورة ، تبايناً كبيراً بين تلك الامم العربية ، فى مناهج الحكم ، وأساليب الادارة ، وفى الآداب والعادات ، وفى كثير من مرافق الحياة الاقتصادية والمادية

هذه الامم المتنافرة قد اجتمعت كلها فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، حول دعوة الاسلام ، وتحت لوائه ، فأصبحوا بنعمة الله اخواناً ، تربطهم وشيجة واحدة من الدين ، ويضمهم سياج واحد ، من زعامة النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن عطفه ورحمته ، وصاروا أمة واحدة ، ذات زعيم واحد ، هو النبى عليه السلام

تلك الوحدة العربية التى وجدت زمن النبى عليه السلام لم تكن وحدة سياسية بأى وجه من الوجوه . ولا كان فيها معنى من معانى الدولة والحكومة ، بل لم تعد أبداً أن تكون وحدة دينية خالصة من شوائب السياسة . وحدة الايمان والمذهب الدينى ، لا وحدة الدولة ومذاهب الملك

(٤) يدلك على هذا سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، فما عرفنا انه تعرض لشىء من سياسة تلك الامم الشتيتة ، ولا غير شيئاً من أساليب الحكم عندهم ، ولا مما كان لكل قبيلة منهم من نظام إدارى أو قضائى ، ولا حاول أن يمس ما كان بين تلك الامم بعضها مع بعض ، ولا ما كان

بينها وبين غيرها ، من صلات اجتماعية أو اقتصادية ، ولا سمعنا انه عزل والياً ، ولا عين قاضياً ، ولا نظم فيها عسساً ، ولا وضع قواعد لتجاراتهم ولا لزراعاتهم ولا لصناعاتهم . بل ترك لهم عليه السلام كل الشئون ، وقال لهم أنتم أعلم بها ، فكانت كل أمة ومالها ، من وحدة مدنية وسياسية ، وما فيها من فوضى أو نظام ، لا يربطهم إلا ما قلناه ، من وحدة الاسلام وقواعده وآدابه

ربما أمكن إن يقال ، أن تلك القواعد والآداب والشرائع ، التى جاء بها النبي عليه السلام ، للامم العربية ولغير الامم العربية أيضاً ، كانت كثيرة ، وكان فيها ما يمس إلى حد كبير اكثر مظاهر الحياة فى الامم ، فكان فيها بعض أنظمة للعقوبات ، وللجيش ، والجهاد ، وللبيع والمداينة والرهن ، ولآداب الجلوس والمشى والحديث ، وكثير غير ذلك . فمن جمع العرب على تلك القواعد الكثيرة ، ووحد بين مرافقهم وآدابهم وشرائعهم الى ذلك الحد الواسع الذى جاء به الاسلام ، فقد وحد أنظمتهم المدنية وجعلهم بالضرورة وحدة سياسية ، فقد كانو إذن دولة واحدة ، وكان النبي عليه السلام زعيمها وحاكمها

ولكنك إذا تأملت ، وجدت ان كل ما شرعه الاسلام ، وأخذ به النبي المسلمين ، من أنظمة وقواعد وآداب لم يكن فى شىء كثير ولا قليل من أساليب الحكم السياسى ، ولا من أنظمة الدولة المدنية ، وهو بعد إذا جمعته لم يبلغ أن يكون جزءاً يسيراً مما يلزم لدولة مدنية من أصول سياسية وقوانين

ان كل ما جاء به الاسلام من عقائد ومعاملات ، وآداب وعقوبات ، فانما هو شرع دينى خالص لله تعالى ، ولمصلحة البشر الدينية لا غير . وسيان بعد ذلك أن تتضح لنا تلك المصالح الدينية أم تخفى علينا ، وسيان أن يكون منها للبشر مصلحة مدنية أم لا ، فذلك مالا ينظر الشرع السماوى اليه ، ولا ينظر اليه الرسول

والعرب وإن جمعتهم شريعة الاسلام لم يزالوا يومئذ على ما عرفت من تباين فى السياسة وفى غيرها من مظاهر الحياة المدنية والاجتماعية والاقتصادية ، ويساوى ذلك أن تقول ، انهم كانوا دولا شتى ، على قدر ما تسمح به حياة العرب يومئذ من معنى الدولة والحكومة

تلك حال العرب يوم لحق عليه السلام بالرفيق الاعلى . وحدة دينية عامة من تحتها دول تامة التباين إلا قليلا . ذلك الحق لا ريب فيه

قد نخاف أن يخفى عليك أمر ذلك التباين ، الذى نقول إنه كان بين أمم العرب زمن النبي عليه السلام ، وأن تخدعك تلك الصورة المتسجمة التى يحاول المؤرخون أن يضعوها لذلك العصر . فاعلم أولا : أن فى فن التاريخ خطأ كثيراً ، وكم يخطىء التاريخ وكم يكون ضلالا كبيراً

واعلم ثانياً : انه فى الحق أن كثيرا من تنافر العرب وتباينهم قد تلاشت آثاره ، بما ربط الاسلام بين قلوبهم ، وما جمعهم عليه من دين واحد ، ومن أنظمة وآداب مشتركة ، واذكر ، ثالثاً : ما أسلفنا لك الاشارة اليه ، من أثر الزعامة الدينية التى كانت للرسول عليه السلام . فلا عجب إذن أن يكون تباين الامم العربية قد وهت آثاره ، وخفيت

مظاهره ، وخفّت حدته ، وذهبت شدته. « واذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ أَخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا »(١)

ولكن العرب على ذلك ما برحوا أمماً متباينة ، ودولا شتى . كان ذلك طبيعيا ، وما كان طبيعيا فقد يمكن أن تخفف حدته ، وتقلل آثاره ، ولكن لا يمكن التخلص منه بوجه من الوجوه

لم يكد عليه السلام يلحق بالرفيق الأعلى حتى أخذت تبدو جلية واضحة أسباب ذلك التباين بين أمم العرب ، وعادت كل أمة منهم تشعر بشخصيتها المتميزة ، ووجودها المستقل عن غيره ، وأوشكت أن تنتقض تلك الوحدة العربية ، التى تمت فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، » وارتد أكثر العرب ، إلا أهل المدينة ومكة والطائف ، فانه لم يدخلها ردة(٢) »

(٦) كانت وحدة العرب كما عرفت وحدة إسلامية لا سياسية ، وكانت زعامة الرسول فيهم زعامة دينية لا مدنية ، وكان خضوعهم له خضوع عقيدة وايمان ، لا خضوع حكومة وسلطان ، وكان اجتماعهم حوله اجتماعا خالصاً لله تعالى ، يتلقون فيه خطرات الوحى ، ونفحات السماء ، وأوامر الله تعالى ونواهيه « وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ »

تلك زعامة كانت لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمى القرشى ،

---

(١) سورة آل عمران (٢) أبو الفدآء ج ١ ص ١٥٢

ليست لشخصيته ولا لنسبه ولكن لأنه رسول الله « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى »[1] بل عن الله تعالى وبواسطة ملائكته المكرمين . فاذا ما لحق عليه السلام بالملأ الأعلى لم يكن لأحد أن يقوم من بعده ذلك المقام الديني ، لانه كان عليه السلام « خاتم النبيين »[2] وما كانت رسالة الله تعالى لتورث عن الرسول ، ولا لتؤخذ منه عطاء ولا توكيلا

(٧) وقد لحق صلى الله عليه بالرفيق الأعلى من غير أن يسمي أحداً يخلفه من بعده ، ولا أن يشير الى من يقوم في أمته مقامه

بل لم يشر عليه السلام طول حياته الى شيء يسمى دولة اسلامية ، أو دولة عربية

وحاشا لله ، ما لحق صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى إلا بعد أن أدى عن الله تعالى رسالته كاملة ، وبين لأمته قواعد الدين كله ، لا لبس فيها ولا ابهام ، فكيف — اذا كان من عمله أن ينشيء دولة — يترك أمر تلك الدولة مبهما على المسلمين ، ليرجعوا سريعاً من بعده حيارى يضرب بعضهم رقاب بعض ! وكيف لا يتعرض لأمر من يقوم بالدولة من بعده . وذلك أول ما ينبغي أن يتعرض له بناة الدول قديماً وحديثاً كيف لا يترك للمسلمين ما يهديهم في ذلك ! وكيف يتركهم عرضة لتلك الحيرة القاتمة السوداء التي غشيتهم وكادوا في غسقها يتناحرون ، وجسد النبي بينهم لما يتم تجهيزه ودفنه !

(٨) واعلم أن الشيعة جميعاً منفقون على أن رسول لله صلى الله عليه وسلم قد عين عليا رضى الله تعالى عنه للخلافة على المسلمين من بعده

---

(١) سورة النجم (٢) سورة الاحزاب

ولا نريد أن نقف بك عند مناقشة ذلك الرأى ، فان حظه من النظر العلمي قليل لا ينبغي أن يلتفت اليه

قال ابن خلدون: إن النصوص التى « ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذه السنة ولا نقلة الشريعة، بل أكثرها موضوع أو مطعون فى طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة »[١]

(٩) وقد ذهب الامام بن حزم الظاهرى الى رأى طائفة قالت إن رسول الله تعالى نص على استخلاف أبى بكر بعده على أمور الناس نصاً جلياً ، لاجماع المهاجرين والانصار على أن سمّوه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعني الخليفة فى اللغة هو الذى يستخلفه ، لا الذى يخلفه دون أن يستخلفه هو، لا يجوز غير هذا البتة فى اللغة بلا خلاف الخ[٢] وقد أطال فى ذلك

والذهاب مع هذا الرأى تعسف لا نرى له وجهاً صحيحاً . ولقد راجعنا ما تيسر لنا من كتب اللغة فما وجدنا فيها ما يعضد كلام الامام ابن حزم ، ثم وجدنا اجماع الرواة على اختلاف الصحابة فى بيعة أبى بكر، وامتناع أجلة منهم عنها ، وقول عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه معتذراً عما قاله[٣] يوم قبض الرسول صلى الله عليه وسلم « أيها الناس

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٦

(٢) الفصول في الملل والاهواء والنحل ج ٤ ص ١٠٧ وما بعدها .

(٣) لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قام عمر بن الخطاب فقال « أن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفي، وان رسول الله والله مامات ، ولكنه ذهب الى ربه، كما ذهب موسى بن عمران فغاب عن قومه اربعين ليلة ثم رجع بعد أن قيل قد مات، والله ليرجعن رسول الله فليقطعن ايدى رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله مات اه تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٩٧

إنى قد كنت قلت لكم بالامس مقالة ما كانت إلا عن رأيي، وما وجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهداً عهده إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنى قد كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا حتى يكون آخرنا. وان الله قد أبقى فيكم كتابه الذى هدى به رسول الله، فان اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله، وثانى إثنين إذ هما فى الغار، فقوموا فبايعوه »(١)

وجدنا ذلك ووجدنا كثيراً غيره فعلمنا أن الذهاب إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد بين أمر الخلافة من بعده رأي غير وجيه، بل الحق انه صلى الله عليه وسلم ما تعرض لشيء من أمر الحكومة بعده، ولا جاء للمسلمين فيها بشرع يرجعون اليه

وما لحق عليه السلام بالرفيق الاعلى الا من بعد ما كمل الدين، وتمت النعمة ورسخت فى حقيقة الوجود دعوة الاسلام، ويومئذ مات عليه الصلاة والسلام، وانتهت رسالته، وانقطعت تلك الصلة الخاصة التى كانت بين السماء والارض فى شخصه الكريم عليه السلام

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٠٣

الباب الثانى

الدولة العربية

الزعامة بعد النبى عليه السلام انما تكون زعامة سياسية — أمر الاسلام فى العرب — نشأة الدولة العربية — اختلاف العرب فى البيعة — :

(١) زعامة النبى عليه السلام كانت ، كما قلنا ، زعامة دينية ، جاءت عن طريق الرسالة لا غير . وقد انتهت الرسالة بموته صلى الله عليه وسلم فانتهت الزعامة أيضاً ، وما كان لاحد أن يخلفه فى زعامته ، كما انه لم يكن لاحد أن يخلفه فى رسالته

فان كان ولا بد من زعامة بين أتباع النبى عليه السلام بعد وفاته ، فانما تلك زعامة جديدة غير التى عرفناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم

طبيعي ومعقول الى درجة البداهة أن لا توجد بعد النبى زعامة دينية ، وأما الذى يمكن أن يتصور وجوده بعد ذلك فانما هو نوع من الزعامة جديد. ليس متصلا بالرسالة ولا قائما على الدين. هو اذن نوع لا دينى واذا كانت الزعامة لا دينية فهى ليست شيئاً أقل ولا أكثر من الزعامة المدنية أو السياسية ، زعامة الحكومة والسلطان. لا زعامة الدين وهذا الذى قد كان

(٢) رفعت الدعوة الاسلامية شأن الشعوب العربية من جهات شتى ، ولم يكن إلا ريثما أهاب بهم الداعى الى الاسلام ، حتى استحالوا

أمة واحدة من خير الامم في زمانهم ، واستعدوا بمثل مايستعد به شعوب البشر لأن يكونوا سادة ومستعمرين

عقيدة صافية من دنس الشرك ، وإيمان راسخ فى أعماق النفس ، وأخلاق هذبها رسول الله ، وذكاء أنمته الفطر السليمة ، ونشاط أمدتهم به الطبيعة ، ووحدة فى الله قاربت منهم ما تباعد ، ولاءمت ما تباين ، وجعلتهم فى دين الله اخواناً . ذلك شأن العرب يوم مات رسول الله عليه الصلاة والسلام

شعب ناهض كالعرب يومئذ لايمكن إذا انحلت عنه زعامة النبوة أن يعود راضياً ، كما كان ، أمماً جاهلية ، وشعوبا همجية ، وقبائل متعادية ، ووحدات مستضعفة ،

إذا هيأ الله لامة أسباب القوة والغلبة فلا بد أن تقوى ولا بد أن تغلب ، ولا بد أن تأخذ حظها من الوجود كاملا غير منقوص ، فلا بد إذن أن تقوم دولة العرب ، كما قامت من قبلها دول وقامت من بعدها دول

(٣) لم يكن خافيا على العرب أن الله تعالى قد هيأ لهم أسباب الدولة ، ومهد لهم مقدماتها ، بل ربما كانوا قد أحسوا بذلك من قبل أن يفارقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذوا من غير شك يتشاورون فى أمر تلك الدولة السياسية ، التى لم يكن لهم مناص من أن يبنوها على أساس وحدتهم الدينية التى خلفها فيهم النبى عليه السلام «وما كانت نبوة إلا تناسخها ملوك جبرية »[1]

---

(١) أى الاتجبر الملوك بعدها اه اساس البلاغة

كانوا يومئذ إنما يتشاورون فى أمر مملكة تقام ، ودولة تشاد ، وحكومة تنشأ إنشاء . ولذلك جرى على لسانهم يومئذ ذكر الامارة والأمراء ، والوزارة والوزراء ، وتذاكروا القوة والسيف ، والعز والثروة ، والعدد والمنعة ، والبأس والنجدة . وما كان كل ذلك إلا خوضا في الملك ، وقياما بالدولة . وكان من أثر ذلك ما كان من تنافس المهاجرين والانصار وكبار الصحابة بعضهم مع بعض ، حتى تمت البيعة لابى بكر ، فكان هو اول ملك فى الاسلام

وإذا أنت رأيت كيف تمت البيعة لابى بكر ، واستقام له الامر ، تبين لك انها كانت بيعة سياسية ملكية ، عليها كل طوابع الدولة المحدثة وانها انما قامت كما تقوم الحكومات ، على اساس القوة والسيف

تلك دولة جديدة انشأها العرب ، فهى دولة عربية وحكم عربى ، ولكن الاسلام كما عرفت دين البشرية كلها ، لا هو عربى ولا هو اعجمى

كانت دولة عربية قامت على اساس دعوة دينية . وكان شعارها حماية تلك الدعوة والقيام عليها . اجل ولعلها كانت فى الواقع ذات اثر كبير فى أمر تلك الدعوة . وكان لها عمل غير منكور فى تحول الاسلام وتطوره . ولكنها على ذلك لا تخرج عن أن تكون دولة عربية ، أيدت سلطان العرب . وروجت مصالح العرب . ومكنت لهم فى أقطار الأرض ، فاستعمروها استعمارا . واستغلوا خيرها استغلالا . شأن الامم القوية التى تتمكن من الفتح والاستعمار

(٤) كان ذلك امراً مفهوماً للمسلمين حينما كانوا يتآمرون فى السقيفة

عمن يولونه امرهم . وحين قال الانصار للمهاجرين « منا امير ومنكم امير »، وحين يجيبهم الصديق رضي الله عنه « منا الامراء ومنكم الوزراء »[١] وحين ينادى ابو سفيان « والله إنى لأرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم . يا آل عبد مناف . فِيمَ أبو بكر من أموركم ؟ اين المستضعفان ! اين الأذلان ! على والعباس !

وقال يا أبا حسن ، أبسط يدك حتى أبايعك . فأبى علىٌّ عليه . فجعل يتمثل بشعر المتلمس ه

ولن يقيم على ضيم يُراد به ... إلا الأذلان عَيْرُ الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته ... وذا يشج فلا يَرْثِي له أحد»[٢]

وحين سعد بن عبادة رضى الله عنه يرفض البيعة لابى بكر وهو يقول : والله حتى أرميكم بما فى كنانتى من نبلي ، واخضب سنان رمحى ، واضربكم بسيفى ما ملكته يدي . وأقاتلكم بأهل بيتى . ومن أطاعني من قومي . فلا أفعل وايم الحق . لو أن الجن اجتمعت لكم مع الانس ما بايعتكم حتى أعرض على ربى وأعلم ما حسابى . فكان سعد لا يصلي بصلاتهم ولا يجمع معهم ، ويحج ولا يفيض معهم بإفاضتهم . فلم يزل كذلك حتى هلك ابو بكر رحمه الله »[٣]

كان معروفاً للمسلمين يومئذ أنهم إنما يقدمون على إقامة حكومة مدنية دنيوية . لذلك استحلوا الخروج عليها . والخلاف لها . وهم يعلمون

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٩٧ (٢) منه ص ٢٠٣ وما بعدها
(٣) منه ص ٢١٠

أنهم إنما يختلفون فى أمر من أمور الدنيا . لا من أمور الدين . وأنهم انما يتنازعون في شأن سياسي . لا يمس دينهم . ولا يزعزع إيمانهم .

وما زعم أبو بكر ولا غيره من خاصة القوم أن إمارة المسلمين كانت مقاما دينيا . ولا أن الخروج عليها خروج على الدين . وإنما كان يقول أبو بكر « يأيها الناس إنما أنا مثلكم ، وإنى لا أدرى . لعلكم ستكلفونى ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطيق . إن الله اصطفى محمداً على العالمين ، وعصمه من الآفات . وإنما أنا متبع ولست مبتدعا »[1]

ولكن اسبابا كثيرة وجدت يومئذ قد ألقت على أبى بكر شيئا من الصبغة الدينية ، وخيلت لبعض الناس انه يقوم مقاما دينيا ، ينوب فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكذلك وجد الزعم بأن الامارة على المسلمين مركز ديني ، ونيابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

وإن من أهم تلك الاسباب التى نشأ عنها ذلك الزعم بين المسلمين ما لقب به ابو بكر من أنه (خليفة رسول الله)

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢١١

الباب الثالث

الخلافة الإسلامية

ظهور لقب (خليفة رسول الله) — المعنى الحقيقى لخلافة ابى بكر عن الرسول — سبب اختيار هذا اللقب — تسمية الخوارج على ابى بكر بالمرتدين — لم يكن الخوارج كلهم مرتدين — ما نعو الزكاة — حروب سياسية لا دينية — قد وجد حقيقة مرتدون — اطلاق ابى بكر الدينية — شيوع الاعتقاد بان الخلافة مقام دينى — ترويج الملوك لهذا الاعتقاد — لا خلافة فى الدين .

(١) لم نستطع أن نعرف على وجه أكيد ذلك الذى اخترع لابى بكر رضى الله عنه لقب خليفة رسول الله ، ولكنا عرفنا أن أبا بكر قد أجازه وارتضاه

ووجدنا انه استهل به كتبه الى قبائل العرب المرتدة ، وعهده الى أمراء الجنود ، ولعلها اول ما كتب ابو بكر ، ولعلها أول ما وصل الينا محتويا على ذلك اللقب [1]

(٢) لاشك فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان زعيما للعرب ومناط وحدتهم . على الوجه الذى شرحنا من قبل . فاذا قام ابو بكر من بعده ملكا على العرب ، جمّاعا لوحدتهم ، على الوجه السياسى الحادث ، فقد ساغ فى لغة العرب ان يقال إنه ، بهذا الاعتبار ، خليفة رسول الله ، كما يسوغ أن يسمى خليفة باطلاق ، لما عرفت فى معنى الخلافة ، فابو بكر

(١) راجع تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٢٦ ، ٢٢٧

كان اذن بهذا المعنى ، خليفة رسول الله ، لا معنى لخلافته غير ذلك

(٣) ولهذا اللقب روعة ، وفيه قوة ، وعليه جاذبيـة ، فلا غرو أن يختـاره الصديق ، وهو الناهض بدولة حادثة ، يريد أن يضم أطرافهـا بين أعاصير من الفتن ، وزوابع من الاهواء العاصفة المتناقضة ، وبين قوم حديثى العهد بجاهلية ، وفيهم كثير من بقايا العصبية ، وشدة البـداوة ، وصعوبة المراس . لـكنهم كانوا حديثى عهد برسول الله صلى الله عليـه وسـلم ، والخضوع له ، والانقياد التام لـكلمته ، فهذا اللقب جدير بأن يكبح من جماحهم ، ويُلين بعض ما استعصى من قيادهم . ولعله قد فعل.

ولقد حسب نفر منهم أن خلافة أبى بكر للرسول صلى الله عليه وسلم. خلافة حقيقية ، بكل معناها ، فقالوا إن أبا بكر خليفة محمد ، وكان محمد خليفة الله ، فذهبوا يدعون أبا بكر خليفة الله، وما كانوا يكونون مخطئين فى ذلك لو أن خلافة الصديق للنبي عليه السـلام كانت على المعنى الذى فهمـوه ولا يزال يفهمه كثير غيرهم الى الآن . ولـكن أبا بكر غضب لهذا اللقب ، وقال « لست خليفة الله ، ولـكنى خليفة رسـول الله »[1]

(٤) حمل ذلك اللقب جماعة من العرب والمسـلمين على أن ينقادوا لإمارة أبى بكر انقياداً دينياً ، كانقيادهم لرسول الله صلى الله عليه وسـلم ، وأن يرعوا مقامه الملوكى بما يجب أن يرعوا به كل ما يمس دينهم . لذلك كان الخروج على أبى بكر فى رأيهـم خروجا على الدين ، وارتداداً عن الاسلام

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص (١٨١)

والراجح عندنا ان ذلك هو منشأ قولهم إن الذين رفضوا إطاعة أبى بكر كانوا مرتدين ، وتسميتهم حروب أبى بكر معهم حروب الردة ،

(٥) ولعل جميعهم لم يكونوا فى الواقع مرتدين، كفروا بالله ورسوله، بل كان فيهم من بقى على اسلامه ، ولكنه رفض أن ينضم الى وحدة أبى بكر ، لسبب ما ، من غير أن يرى فى ذلك حرجا عليه ، ولا غضاضة فى دينه . وما كان هؤلاء من غير شك مرتدين ، وما كانت محاربتهم لتكون باسم الدين . فان كان ولا بد من حربهم فانما هى السياسة ، والدفاع عن وحدة العرب ، والذود عن دولتهم .

وقد وجدنا أن بعض من رفض بيعة ابى بكر ، بعد أن تمت له البيعة من المسلمين ، كعلى ابن ابى طالب ، وسعد بن عبادة ، لم يعاملوا معاملة المرتدين ، ولا قيل ذلك عنهم .

(٦) ولعل بعض أولئك الذين حاربهم أبو بكر لانهم رفضوا أن يؤدوا اليه الزكاة ، لم يكونوا يريدون بذلك أن يرفضوا الدين ، وأن يكفروا به ، ولكنهم لا غير رفضوا الاذعان لحكومة أبى بكر ، كما رفض غيرهم من جلّة المسلمين ، فكان بديهياً أن يمنعوا الزكاة عنه ، لانهم لا يعترفون به ، ولا يخضعون لسلطانه وحكومته

كم نشعر بظامة التاريخ وظامه ، كلما حاولنا أن نبحث جيداً فيما رواه لنا التاريخ عن أولئك الذين خرجوا على أبى بكر ، فلقبوا المرتدين، وعن حروبهم تلك التى لقبوها حروب الردة

ولكن قبساً من نور الحقيقة لا يزال ينبعث من بين ظامات التاريخ ،

وسيتجه العلماء يوما نحو ذلك القبس ، وعسى أن يجدوا على تلك النار هدى

دونك حوارَ خالد بن الوليد ، مع مالك بن نويرة ، أحد أولئك الذين سمَّوْهم مرتدين ، وهو الذى أمر خالد فضربت عنقه ، ثم أخذت رأسه بعد ذلك فجعلت أُثفية[1] لقدر

يعلن مالك ، فى صراحة واضحة ، الى خالد أنه لا يزال على الاسلام ، ولكنه لا يؤدى الزكاة الى صاحب خالد (أبى بكر)

كان ذلك إذن نزاعاً غير دينى . كان نزاعاً بين مالك ، المسلم الثابت على دينه ولكنه من تميم ، وبين أبى بكر القرشى ، الناهض بدولة عربية أمتها من قريش . كان نزاعاً فى ملوكية ملك ، لا فى قواعد دين ، ولا فى أصول إيمان

ليس مالك هو وحده الذى يشهد لنفسه بالاسلام ، بل يشهد له به أيضا عمر بن الخطاب ، إذ يقول لابى بكر « إن خالداً قتل مسلما فاقتله » بل يشهد له بالاسلام ايضا ابو بكر إذ يجيب « ما كنت أقتله ، فانه تأول فأخطأ »[2]

ودونك مثالا آخر ، قول شاعر منهم

اطعنا رسول الله ما كان بيننا ... فيالعباد الله مالابى بكر

ايورثنا بكراً إذا مات بعده ... وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

---

(١) توضع القدر عند ماتوقد عليها النار للطبخ فوق حجرين متقابلين ، ومن خلفهما حجر ثالث ، فاذا لم يجدوا حجرا ثالثا أسندوا القدر الى الجبل . والاثفية بضم الهمزة وكسرها وكسر الفاء ، الحجر توضع عليه القدر والجمع أثافى وأثاف . ورماه الله بثالثة الاثافى أى بالجبل

(٢) راجع ذلك الحديث فى الجزء الاول من تاريخ أبى الفداء ص ١٥٧ ، ١٥٨

(٣) هو الخطيل بن أوس أخو الحصين بن أوس . تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٢٣

فأنت لا تجد فى هذا إلا رجلا ثائراً على أبى بكر ، منكراً لولايته، رافضا لطاعته ، آبيا لبيعته ولكنه فى الوقت نفسه يؤمن برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يعلن إباءه لشىء من الاسلام

ثم ألسنا نقرأ فى التاريخ أيضا ، أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أنكر على أبى بكر قتاله المرتدين وقال « كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه ، وحسابه على الله » (١)

ذلك قليل مما بقى فى الاخبار من صدق كاد يعفى التاريخ على أثره ، ومن حق كاد يذهب بخبره . وابحث ثم مزيد

(٧) لسنا نتردد لحظة فى القطع بان كثيراً مما وسموه حرب المرتدين فى الايام الاولى من خلافة أبى بكر لم يكن حربا دينية ، وانما كان حربا سياسية صرفة ، حسبها العامة دينا ، وما كانت كلها للدين

ليس من عملنا فى هذا المقام أن نبين لك تلك الاسباب الحقيقية ، التى كانت فى الواقع مثاراً لكثير من حرب الردة ، ولا نستطيع أن ندعى اضطلاعنا بهذا البحث ، إن نحن حاولناه . ولكن يخيل الينا انك قد تظفر ببعض الاسباب الاساسية المهمة اذا أنت دققت النظر فى أنساب وقبائل الثائرين على أبى بكر ، وعرفت صلتهم من قريش ، جد البيت القائم بالملك ، واذا انت فطنت إلى سنن الله تعالى فى الدول الناشئة ، والعصبيات المتغلبة على الملك ، وكنت مع ذلك بصيراً بطبائع العرب وآدابهم ، ثم رزقت التوفيق

(١) البخارى ج ٢ ص ١٠٥

(٨) نحن نميل الى الاعتقاد بانه قد ارتد بالفعل جماعة من المسلمين، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فذلك شيء تكاد تقضي به سنن الطبيعة وأنظمتها التي عرفنا . وأسهل من ذلك ان نعتقد بانه قد ادعى النبوة ، في حياة محمد صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته ، متنبئون كذابون . وقد نرى في مشاهداتنا أن دعوى النبوة ليست بعيدة من ذهن المضلل الغوى ، اذا هو لقى من العامة انجذاباً ، وأغوى منهم صحابا واحبابا ، ولا شيء أسهل عنـد العامة من الايمان بنبوة ذلك المضلل الغوى ، اذا هو عرف كيف يغريهم بالضلال ، ويمدهم في الغى . لذلك نرجح انه قد وجد بالفعل، في أول عهد ابي بكر ، جماعة ارتدوا عن الاسلام ، بوفاة النبي عليه السلام كما وجد من ادعى النبوة في قبائل العرب

وقد كان من أول ما عمل ابو بكر نهوضه لحرب اولئك المرتدين الحقيقيين ، والمتنبئين الكذابين . حتى غلبهم وقضى على باطلهم .

لا نريد البحث فيما اذا كانت لابي بكر صفة دينية صرفة جعلته مسئولا عن أمر من يرتد عن الاسلام ام لا ، ولا نريد البحث فيهما اذ كانت ثمت أسباب غير دينية حفزت لتلك الحرب عزيمة ابي بكر أم لا .

ومهما يكن الامر فلا شك أن أبا بكر قد بدأ عمله في الدولة الجديدة بحرب أولئك المرتدين . وهنا نشأ لقب المرتدين . نشأ لقبا حقيقيا ، لمرتدين حقيقيين ، ثم بقي لقبا لكل من حاربهم ابو بكر من العرب بعد ذلك ، سواء أكانوا خصوما دينيين ومرتدين حقيقة ، أم كانوا خصوما سياسيين غير مرتدين . ومن أجل ذلك انطبعت حروب ابي بكر في

جملتها بطابع الدين ، ودخلت تحت اسم الاسلام وشعاره ، وكان الانضمام الى ابى بكر دخولا تحت لواء الاسلام ، والخروج عليه ردة وفسوقا .

(٩) ربما كانت ثمت ظروف أخرى خاصة بابى بكر ، قد ساعدت على خطأ العامة ، وسهلت عليهم أن يشربوا امارة أبى بكر معنى دينيا .

فقد كانت للصديق رضى الله عنه منزلة رفيعة ممتازة ، عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر فى الدعوة الدينية ممتاز وكذلك كانت منزلته عند المسلمين

وقد كان الصديق مع هذا يحذو حذو الرسول ، ويمشى على قدمه ، فى خاصة نفسه ، وفى عامة أموره ، ولا شك فى أن ذلك كان شأنه أيضاً فى سياسة أمر الدولة . فقد سار بها ، مبلغ جهده ، فى طريق دينى ، ونهج بها ، على القدر الممكن . منهج رسول الله . فلا غرو أن أفاض أبو بكر على مركزه فى الدولة الجديدة ، التى كان هو أول ملك عليها ، كل ما يمكن من مظاهر الدين

(١٠) تبين لك من هذا أن ذلك اللقب (خليفة رسول الله) مع ما أحاط به من الاعتبارات التى أشرنا الى بعضها ولم نشر الى باقيها ، كان سبباً من أسباب الخطأ الذى تسرب الى عامة المسلمين ، فخيل اليهم أن الخلافة مركز ديني ، وأن من ولى أمر المسلمين فقد حل منهم فى المقام الذى كان يحله رسول الله صلى الله عليه وسلم

وكذلك فشا بين المسلمين منذ الصدر الاول ، الزعم بأن الخلافة مقام دينى ، ونيابة عن صاحب الشريعة عليه السلام

(١١) كان من مصلحة السلاطين أن يروجوا ذلك الخطأ بين الناس، حتى يتخذوا من الدين دروعا تحمى عروشهم ، وتذود الخارجين عليهم . وما زالوا يعملون على ذلك ، من طرق شتى — وما أكثر تلك الطرق لو تنبه لها الباحثون — حتى أفهموا الناس أن طاعة الأئمة من طاعة الله ، وعصيانهم من عصيان الله ، ثم ما كان الخلفاء ليكتفوا بذلك، ولا ليرضوا بما رضى ابو بكر ، ولا ليغضبوا مما غضب منه ، بل جعلوا السلطان خليفة الله فى ارضه ، وظله الممدود على عباده . سبحان الله وتعالى عما يشركون

ثم اذا الخلافة قد أصبحت تلصق بالمباحث الدينية ، وصارت جزءاً من عقائد التوحيد ، يدرسه المسلم مع صفات الله تعالى وصفات رسله الكرام، ويلقنه كما يلقن شهادة ان لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله

تلك جناية الملوك واستبدادهم بالمسلمين ، اضلوهم عن الهدى وعموا عليهم وجوه الحق، وحجبوا عنهم مسالك النور باسم الدين ، وباسم الدين ايضا استبدوا بهم ، وأذلوهم ، وحرموا عليهم النظر فى علوم السياسة ، وباسم الدين خدعوهم وضيقوا على عقولهم ، فصاروا لا يرون لهم وراء ذلك الدين مرجعا ، حتى فى مسائل الادارة الصرفة ، والسياسة الخالصة ،

ذلك وقد ضيقوا عليهم ايضا فى فهم الدين ، وحجروا عليهم فى دوائر عينوها لهم ثم حرموا عليهم كل أبواب العلم التى تمس حظائر الخلافة

كل ذلك انتهى بموت قوى البحث ، ونشاط الفكر ، بين المسلمين ،

فاصيبوا بشلل ، فى التفكير السياسى ، والنظر فى كل ما يتصل بشأن الخلافة والخلفاء

(١٢) والحق ان الدين الاسلامى برىء من تلك الخلافة التى يتعارفها المسلمون، وبرىء ، من كل ماهيأوا حولها من رغبة ورهبة، ومن عز وقوة. والخلافة ليست فى شىء من الخطط الدينية ، كلا ولا القضاء ولا غيرهما من وظائف الحكم ومراكز الدولة . وانما تلك كلها خطط سياسية صرفة ، لا شأن للدين بها ، فهو لم يعرفها ولم ينكرها ، ولا أمر بها ولا نهى عنها ، وانما تركها لنا ، لنرجع فيها الى احكام العقل ، وتجارب الامم ، وقواعد السياسة

كما أن تدبير الجيوش الاسلامية ، وعمارة المدن والثغور ، ونظام الدواوين لاشأن للدين بها ، وانما يرجع الامر فيها الى العقل والتجريب ، او الى قواعد الحروب ، او هندسة المبانى وآراء العارفين

لاشىء فى الدين يمنع المسلمين ان يسابقوا الامم الاخرى ، في علوم الاجتماع والسياسة كلها ، وان يهدموا ذلك النظام العتيق الذى ذلوا له واستكانوا اليه ، وأن يبنوا قواعد ملكهم، ونظام حكومتهم، على احدث ما انتجت العقول البشرية ، وأمتن ما دلت تجارب الامم على انه خير أصول الحكم

والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه ومن والاه